الفصل الثالث

حكمة نزول القرآن مفرقاً

نزول القرآن الكريم:

شرّف الله هذه الأمة المحمدية، فأنزل عليها كتابه المعجز - خاتمة الكتب السماوية - ليكون دستوراً لحياتها، وعلاجاً لمشاكلها، وبلسماً شافياً لعللها وأمراضها، وآية محمدٍ وفخار على اصطفاء هذه الأمة، واختيارها لحمل أقدس الرسالات السماوية، حيث أكرمها الله بإنزال أشرف كتاب، وخصّها بالانتساب الى أشرف مخلوق (محمد بن عبد الله) ﷺ. وبنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرسالات السماوية، فشعّ النور على العالم، وسطع الضياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النزول بواسطة امين السماء (جبريل) عليه السلام، يهبط به على قلب النبي ﷺ ليبلغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه: **﴿نزل به الروحُ الامينُ ★ على قلبك لتكون من المنذرين ★ بلسان عربي مبين﴾**[1].

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزّلان:

الأول: من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا (جملة واحدة) في ليلة القدر.

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٣ - ١٩٥.

الثاني: من السماء الدنيا إلى الأرض (مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة.

أما **التنزل الأول**: فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدهر هي (ليلة القدر) أنزل فيه القرآن كاملاً إلى (بيت العزة) في السماء الدنيا، ويدل عليه عدة نصوص وهي:

آ ـ قوله تعالى: ﴿حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ [1].

ب ـ وقوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر﴾ [2]

جـ ـ وقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان﴾ [3].

فقد دلت هذه الآيات الثلاث على ان القرآن أنزل في ليلة واحدة، توصف بأنها مباركة، وتسمى (ليلة القدر) وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعين أن يكون هذا النزول هو النزول الأول الى بيت العزة في السماء، لأنه لو اريد به النزول الثاني على النبي ﷺ لما صح أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شهر رمضان) لأن القرآن إنما نزل في مدة طويلة هي مدة البعثة ٢٣ سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعين ان يكون المراد به (النزول الأول) وقد جاءت الاخبار الصحيحة تؤيد ذلك منها:

آ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (فُصِل القرآنُ من الذكر فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ) [4].

ب ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء

---

(١) سورة الدخان، الآية: ١ ـ ٣.

(٢) سورة القدر، الآيتان: ١، ٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٤) رواه الحاكم.

الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله ﷺ بعضه في إثر بعض)[1].

جـ - وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدنيا جملة واحدة، ثم انزل نجوماً)[2]. قوله نجوماً: أي أجزاء متفرقة..

فهذه الروايات الثلاث رواها السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) وبيّن انها كلها صحيحة، كما روى (السيوطي) أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سأله (عطيةُ بن الأسود) فقال: (أوقع في قلبي الشك قوله تعالى: **﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآنُ﴾** وقوله: **﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾** وهذا انزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر، وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر، جملةً واحدة، ثم أُنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والايام).

يريد بقوله (مواقع النجوم) وبقوله (رسلاً) أي انه انزل منجماً مفرقاً، يتلو بعضه بعضاً على تؤدة ورفق. وذكر (السيوطي) أن القرطبي نقل حكاية الاجماع على نزول القرآن جملة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة في السماء الدنيا. ولعلّ الحكمة في هذا النزول هي: تفخيم أمر القرآن، وأمر من نزل عليه، بإعلام سكان السموات السبع أنّ هذا آخر الكتب المنزّلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قد قرّبناه إليهم لننزله عليهم.

قال السيوطي: (ولولا أن الحكمة الالهية اقتضت وصوله اليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزّلة قبله، ولكنّ الله سبحانه بانّ (أي

---

(١) رواه الحاكم والبيهقي.

(٢) رواه الطبراني.

خالف) بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم انزاله مفرقاً، تشريفاً للمُنْزل عليه)[1].

٢ ـ التنزيل الثاني:

وأما التنزيل الثاني فقد كان من السماء الدنيا على قلب النبي ﷺ منجماً (أي مفرقاً) في مدة ثلاث وعشرين سنة وهي من حين البعثة إلى حين وفاته صلوات الله وسلامه عليه. والدليل على هذا النزول وأنه نزل منجماً قول الله تعالى في سورة الإسراء:

أ ـ ﴿وقرآناً فرَقْناهُ لِتَقرَأهُ على النّاسِ على مُكثٍ، ونزّلناه تَنْزيلاً﴾[2].

وقوله تعالى في سورة الفرقان:

ب ـ ﴿وقالَ الذينَ كفروا لولا نُزّل عليه القُرآنُ جُملَةً واحدة كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ ورتّلناهُ تَرتيلاً﴾[3].

روي ان اليهود والمشركين عابوا على النبي ﷺ نزول القرآن مفرقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملة واحدة حتى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أُنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين رداً عليهم، وهذا الرد ـ كما يقول الزرقاني ـ يدل على أمرين:

أحدهما: ان القرآن نزل مفرقاً على النبي ﷺ.

والثاني: ان الكتب السماوية قبله نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعاً.

---

(١) أنظر: الأتقان، ص ٤٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ووجه الدلالة على هذين الأمرين: أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادّعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرّقاً ولو كان نزول الكتب السماوية مفرّقاً كالقرآن لردّ عليهم بالتكذيب، وباعلان ان التنجيم هو سنّة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل، كما ردّ عليهم حين طعنوا على الرسول وقالوا: ﴿**ما لهذا الرّسول يأكُلُ الطّعامَ ويَمشي في الأسْواق**﴾[1] ردّ عليهم بقوله ﴿**وما أرسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلينَ إلاّ إنّهُم لَيَأكُلونَ الطّعامَ ويَمْشُونَ في الأسْواق**﴾[2].

حكمة نزول القرآن منجماً:

لنزول القرآن الكريم منجّماً (أي مفرقاً) حِكَمٌ جليلةٌ، وأسرار عديدة عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ونستطيع أن نجملها فيما يأتي وهي:

أولا: تثبيت قلب النبي ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانياً: التلطف بالنبي ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثاً: التدرج في تشريع الاحكام السماوية.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسايرة الحوادث والوقائع، والتنبيه عليها في حينها.

سادساً: الإرشاد الى مصدر القرآن، وأنه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنبدأ بشيء من التفصيل عن هذه الحكم العديدة، التي اجملناها فيما سبق فنقول ومن الله نستمد العون:

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٠. انظر مناهل العرفان، ص٤٦.

أولا : أما الحكمة الاولى وهي (تثبيت قلب النبي ﷺ) فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرد على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملة واحدة كما نزلت الكتب السماوية السابقة فردّ الله عليهم بقوله ﴿ كذلك لنثبّت به فؤادك ورتّلناه ترتيلاً ﴾[1] وتثبيت قلب النبي ﷺ انما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له وإيذائهم الشديد له ولأتباعه، فقد كانت الايات الكريمة تنزل على رسول الله ﷺ (تسلية) له وشحذاً لهمته للمضيّ في طريق الدعوة مهما اعترضته المصاعب والشدائد، وتقوية لقلبه الشريف، فقد تعهّده الله سبحانه وتعالى بما يخفف عنه الشدائد والآلام، فكان اذا اشتد الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفاً عمّا يلقاه، وكانت التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا على ما كُذِّبوا وأوذُوا حتّى أتاهم نصرنا.. ﴾[2] الآية. وقوله تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[3] وقوله ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنّكَ بأعْيُننا ﴾[4].

وقد أوضح الباري جلّت عظمته الحكمة من ذكر قصص الأنبياء فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ وكلاً نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أنْباء الرّسُل ما نُثَبّت به فُؤادَكَ، وجاءَكَ في هذه الحَقّ ومَوْعِظَةٌ وذِكْرَى للمؤمنين ﴾[5] وتارة كانت التسلية عن طريق الوعد بالنصر والتأييد للنبي ﷺ كقوله تعالى ﴿ وينصُرَكَ اللهُ نصراً عزيزاً ﴾[6] وكقوله ﴿ ولقد سَبَقَتْ كلمتُنا لعبادنا المُرسَلين ★ إنهم لهم المَنْصُورون وإنّ جُنْدَنا لهمُ الغالِبُون ﴾[7].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥

(٤) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٥) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٦) سورة الفتح، الآية: ٣.

(٧) سورة الصافات، الآيات: ١٧١ - ١٧٣.

وأخرى تكون التسلية عن طريق إخبار الرسول باندحار اعدائه وانهزامهم كما في قوله تعالى ﴿سيهزمُ الجمعُ ويولّونَ الدُّبُر﴾[1] وقوله ﴿قُلْ للذين كفَروا ستُغلَبُون وتُحشَرونَ إلى جهنم وبِئسَ المهاد﴾[2]. إلى آخر ما هنالك من ألوان في التخفيف عن قلب الرسول، وتطييب نفسه وفؤاده، ولا شك أن في تجدد نزول الوحي، وتكرّر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات، التي فيها تسلية للنبي ﷺ وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة، والمضيّ في تبليغ الرسالة الإلهية، لأنّ الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

ثانياً ـ أما الحكمة الثانية وهي: (التلطف بالنبي ﷺ) عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى ﴿إنّا سَنُلقي عليكَ قولاً ثقيلاً﴾[3] فالقرآن ـ كما هو مقطوع به ـ كلام الله المعجز، الذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة وهو الكتاب الذي لو نزل على جبلٍ لتفتّت وتصدّع من هيبته وجلاله كما قال تعالى ﴿لَوْ أنزَلْنا هذا القُرآنَ على جبلٍ لرَأيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدّعاً من خشْيَةِ الله..﴾[4] فكيف اذا بقلب النبي الرقيق، هل يستطيع ان يتلقّى جميع القرآن دون أن يتأثر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله!! ولقد اوضحت السيدة عائشة حالة الرسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدة وهول من أثر التنزيل، فقالت: (كما رواه البخاري) ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه (اي ينفصل) وإن جبينه ليتفصد عرقاً). يتفصد: أي يتصبب عرقاً وذلك من شدة الوحي ووطأته على النبي ﷺ..

ثالثاً: وأما الحكمة الثالثة وهي: (التدرج في تشريع الاحكام) فقد كانت جليّة

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٢١.

واضحة، حيث سلك القرآن الكريم مع البشرية ـ وخاصة منهم العرب ـ طريق الحكمة ففطمهم عن الشرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حبّ الله ورسوله، والايمان بالبعث والجزاء، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة ـ مرحلة تثبيت دعائم الإيمان ـ الى العبادات فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة، ثم ثنّى بالصوم وبالزكاة في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم اولا عن الكبائر، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم كالخمر والربا والميسر، تدرجاً حكيماً، استطاع بذلك ان يقتلع الشرّ والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك التشريع الحكيم، الذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعية (تحريم الخمر) الذي كان داءً مستشرياً عند العرب، كيف استطاع ان يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟ لقد انتهج القرآن في تحريمه أربع مراحل، كما هو الشأن في تحريم الربا، فلم يحرّمه دفعة واحدة لانهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منا الماء الزلال، فلم يكن من الحكمة ان يحرّمه عليهم دفعة واحدة، وانما حرمه بالتدريج، فبدأ اولاً بالتنفير منه بطريق غير مباشر فنزل قوله تعالى **﴿ومِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأعنابِ تَتَّخِذونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً..﴾**[1] الآية فقد اخبر تعالى أنّه قد أنعم على الناس بهاتين الشجرتين (النخيل، والاعناب) يستخرجون منها (السَّكَرَ) أي الخمر الذي يسكر و (الرزق الحسن) الذي ينتفع منه الناس من مأكول ومشروب، فمدح الثاني ووصفه بأنه رزق حسن، وأخبر عن الأول بأنه (سَكَر) اي شيء يسكر ويذهب بعقل الإنسان وبهذه المباينة في الوصف يتّضح لكل عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثانية: جاء التنفير المباشر عن طريق المقارنة العملية بين شيئين: شيء فيه نفع مادي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسمي وصحي وعقلي جسيم، وفيه كذلك زيادة

---

(١) سورة النحل، الآية: ٦٧.

على الاضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير. استمع إلى قوله تعالى ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر، قُلْ: فيهما إثمٌ كبيرٌ، ومنافعُ للنّاس وإثمُهما أكبرُ من نفعهما..**﴾(١) الآية. والمراد بالمنافع هنا: المنافع المادية التي كانوا يستفيدونها من وراء التجارة والبيع للخمر حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولا شك ان النفع في الميسر (مادي) بحت حيث يربح بعض المقامرين فكذلك في الخمر.

قال العلامة القرطبي في تفسيره عند تفسير هذه الآية: قوله تعالى ﴿**ومنافع للنّاس**﴾ (أما في الخمر فربح التجارة، فإنهم كانوا يجلبونها من الشام برُخص، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصح ما قيل في منتفعها). وبالمقارنة بين هذين الشيئين تبيّن ان الاسلام نفر من الخمر عن طريق بيان اضرارها الجسيمة ولكنه لم يحرّمها. وقد روي في سبب نزول هذه الآية ان جماعة من المسلمين فيهم عمر بن الخطاب جاءوا الى الرسول الكريم فقالوا يا رسول الله: اخبرنا عن الخمر؟ فإنها مَذهَبةٌ للعقل، مَضيَعةٌ للمال، منهكة للجسم؟ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿**يسألونك عن الخمر والميسر..**﴾ الآية.

وفي المرحلة الثالثة: كان التحريم للخمر، ولكنه كان (تحريماً جزئياً) حيث نزل قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذينَ آمنُوا لا تَقرَبُوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون...**﴾(٢) الآية. فقد حرّم الله عليهم الخمر وقت الصلاة فقط حتى يصحوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلاً وفي غير أوقات الصلاة، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أن (عبد الرحمن بن عوف) صنع وليمة فدعا اليها بعض الصحابة، قال (علي بن ابي طالب): فدعانا وسقانا الخمر، فأخذت الخمر منّا، وحضرت الصلاة فقدّموني لأصلي بهم إماماً فقرأت (قُلْ يا أيها الكافرون. أعبُدُ ما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٢) سورة النساء، الآية:٤٣.

تَعْبُدونَ. ونَحْنُ نَعْبُدُ ما عَبَدْتُمْ) الى آخر ذلك أي أنه لسكره غيّر فيها، فنزلت الآية الكريمة.

وفي المرحلة الرابعة: وهي المرحلة الأخيرة كان التحريم الكلي، القاطع المانع، حيث نزل قوله تعالى ﴿يَا أيها الَّذينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِر والأنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِن عَمَلِ الشَّيْطان فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون* إنَّما يُريدُ الشَّيْطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُم العَداوةَ والبَغْضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسر، ويصدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاةِ، فَهَلْ أنْتُم مُنْتَهُون..﴾[1]؟ وسبب نزول هذه الآيات الكريمة على ما ذكره المفسرون هو: أن بعض الصحابة صلوا العشاء ثم شربوا الخمر وجلسوا يتسامرون، فلعبت الخمر في رؤوسهم وكان فيهم (حمزة بن عبد المطلب) عمّ النبي ﷺ، وكانت جارية صغيرة تنشدهم وتغنّيهم، فقالت ضمن نشيدها:

ألا يـــا حمزُ للشُّـــرُفِ النِّـــوَاءِ وهُـــنَّ مُعَقَّلاتٌ بـــالفنـــاءِ

تهيّج حمزة على النوق (الابل) التي كانت بجوار الدار، فقام حمزة فجبّ اسنمة ناقتي (عليّ) وبقر خاصرتيها ـ وهو في حالة السكر ـ فأخبر عليّ بذلك فتألّم اشد الألم وذهب الى النبي ﷺ يشكو اليه ما فعل عمه (حمزة) فجاء النبي ﷺ اليه يعاتبه ويلومه على صنيعه، فجعل حمزة ينظر اليه نظرة غريبة (يصوّب بصره ويُخفّضه) ثم خاطبه النبي ﷺ ومن معه بقوله: وهم انتم إلا عبيد لأبي؟ فعلم رسول الله ﷺ ان عمه ثَمِلٌ (أي سكران) فلم يؤاخذه. فقال عمر عندئذ: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فأنزل الله ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ﴾ الآية. وهكذا تم تحريم الخمر تحريماً (بالتدرج)، فكان في ذلك اعظم حكمة جليلة سلكها الاسلام في معالجة الامراض الاجتماعية. وقد جاء في كتاب (مناهل العرفان) للزرقاني ما نصّه: (وتدرّج الاسلامُ بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر، تدرجاً حكيماً حقق الغاية، وانقذهم من كابوسها في النهاية، وكان الاسلام في انتهاج هذه الخطة

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

المثلى أبعد نظراً، وأهدى سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجع سياسة، من تلكم الأمم المتمدنة المتحضرة التي افلست في تحريم الخمر على شعوبها افظع إفلاس، وفشلت أمرّ فشل، وما عهد امريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد!! أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشعوب، وتهذيب الجماعات، بلى والتاريخ من الشاهدين.

اما الحكمة الرابعة: فهي: (تسهيل حفظ القرآن) على المسلمين، وفهمهم وتدبرهم له، فمن المعلوم ان العرب كانوا أميين (أي لا يقرأون ولا يكتبون) وقد سجّل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالى ﴿**هو الذي بعث في الأمّيّينَ رسُولاً منهُم يَتْلُو علَيْهِمْ آياته..**﴾[1] الآية. كما كان صلوات الله عليه أمياً كذلك ﴿**الذين يتّبعون الرّسُولَ النبيّ الأميّ**﴾[2] فاقتضت حكمة الله ان ينزل كتابه المجيد (منجماً) ليسهل حفظه على المسلمين، لأنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، فكانت صدورُهم اناجيلهم، كما ورد في وصف امة محمد ﷺ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتالي عن تدبّره وفهمه!!

اما الحكمة الخامسة: فهي: (مسايرة الحوادث والوقائع في حينها) والتنبيه على الاخطاء في وقتها، فإن ذلك اوقع في النفس وأدعى الى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق (الدرس العملي) فكلّما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلما حصل منهم خطأ او انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم الى ما ينبغي اجتنابه ولطلب عمله ونبههم الى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلاً على ذلك (غزوة حنين) فقد دخل الغرور الى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار لما رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا (لن نُغْلَبَ اليوْمَ مِنْ قِلّة) وكانت النتيجة انكسارهم وانهزامهم وتوليتهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً،**

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

﴿وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[1] ولو ان القرآن نزل جملة واحدة لما أمكن التنبيه على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصور ان تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة او الغزوة؟ وكذلك الحال في اخذ الفداء من الأسرى في (بدر) حيث نزل التوجيه السماوي الرائع ﴿ما كان للنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ..﴾[2] الآية.

أما الحكمة السادسة: فهي: (الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم وأنه تنزيل الحكيم الحميد) وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصّ ما كتبه العالم الفاضل الشيخ (محمد عبد العظيم الزرقاني) في كتابه: مناهل العرفان حيث جاء برائع البيان فقال رحمه الله تعالى: (الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه..). وبيان ذلك: أن القرآن الكريم نقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قويّ الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سُوَره وآياته وجُمَلِه، يجري دم الإعجاز فيه كلّه من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه سِمْط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جُمَلُه وآياته.. وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنّه لم يتنزّل جملة واحدة، بل تنزّل آحاداً مفرّقة تفرّق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!

الجواب: أننا نلمح هنا سراً جديداً من أسرار الإعجاز، ونشهد سمةً فذّة من سِمات الربوبية ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديّان ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[3]؟ وإلاّ فحدّثني بربك كيف

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٦٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٢.

تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الإتصال والترابط، متين النسج والسَّرْد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي (وقائع الزمن وأحداثه) التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية إثْر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف، وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاماً لا ريب أن هذا الانفصال الزماني، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي، يستلزمان في مجرى العادة (التفكك والانحلال) ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتصال، بين نجوم هذا الكلام. أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضاً.. نزل مفرّقاً منجماً، ولكنّه مترابطاً محكماً، أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القُوَى والقُدَر، ومالك الأسباب والمسبّبات، ومدبّر الخلق والكائنات، وقيّوم الأرض والسموات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟؟

لاحظ فوق ما أسفلنا أن رسول الله ﷺ كان إذا أنزلت عليه آية أو آيات قال: «ضعوها في مكان كذا، من سورة كذا» وهو بشر لا يدري طلعاً ما سنجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي والأحداث، فضلاً عما سينزل من الله فيها.. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم، وإذا القرآن كلّه بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم، وينتظم ويتآخى، ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يُعْجِزُ الخلقَ طرّاً، بما فيه من انسجام ووحدة وترابط ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1]!!

وإنه ليستبين لك سرّ هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتّساق والانسجام، لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن، ولا على قريب من هذا النمط، لا في كلام الرسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء.. خذ

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

مثلاً (حديث النبي ﷺ) وهو ما هو في روعته وبلاغته وطهره وسموه، لقد قاله الرسول ﷺ في مناسبات مختلفة، لدواع متباينة، في أزمات متطاولة، فهل في مكنتك ومكنة البشر معك أن ينظموا من هذا السَّرْد الشتيت وحده، كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه، أو يتزيدوا عليه، أو يتصرفوا فيه؟؟ ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنما يحاول العبث، ويخرج للناس بثوب مرقّع، وكلام ملفق، ينقصه الترابط والانسجام، ويُعوزُه الوحدة والاسترسال، وتمجّه الأسماع والأفهام. إذن: فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجماً بأنه كلام الله وحده، وتلك حكمة جليلة الشأن، تدلّ الخلق على الحق في مصدر القرآن!! ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[1]!!

كيف تلقّى النبيّ ﷺ القرآن؟

تلقى النبي ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي (جبريل) عليه السلام، و(جبريل) تلقاه عن ربّ العزّة جلّ جلاله، وليس لجبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرسول ﷺ.. فالله جلّت حكمته قد أنزل كتابه المقدس على خاتم أنبيائه بواسطة (أمين الوحي) جبريل، وعلّمه جبريل للرسول، وبلّغه الرسول لأمته، وقد وصف الله (جبريل) عليه السلام بأنه أمين على الوحي، يبلّغه كما سمعه عن الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[2] وقال تعالى في وصفه أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[3] أمّا حقيقة الكلام، وحقيقة المُنزل فإنما هو كلام الله، وتنزيل رب العالمين، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[4] وقد كان

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦. أنظر مناهل العرفان: ١ / ٥٤.

(٢) سورة التكوير، الآيات: ١٩ - ٢١.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣ - ١٩٤.

(٤) سورة النمل، الآية: ٦.

صلوات الله عليه يعاني عند نزول القرآن شدة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرّر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن، خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمره الله تعالى بالإنصات والسكوت عند قراءة جبريل عليه، وطمأنه بأنه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظاً في صدره، فلا يتعجل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقيه ﴿**ولا تَعْجَل بالقُرآنِ مِنْ قبلِ أن يُقضى إليكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْني علماً**﴾[1] وأما تَكَفُّلُ الله تعالى له بالحفظ فقد جاء في قوله سبحانه ﴿**لا تُحرِّكْ به لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بهِ * إنّ علَيْنا جَمْعَهُ وقُرآنَه* فإذا قرأناه فاتّبعْ قُرآنَه* ثُمّ إنّ علَيْنا بَيانَه**﴾[2] وقد كان جبريل يدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرسول بين يديه، وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنبي يستمع، وهكذا يدارسه في كل رمضان ما نزل من القرآن مرة واحدة، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرتين في رمضان فدارسه القرآن حتى لقد شعر عليه الصلاة والسلام - من نزول جبريل مرتين عليه - بدنوّ أجله، وقال لعائشة رضي الله عنها: «إن جبريل كان ينزل عليّ فيدارسني القرآن مرة واحدة في رمضان، وقد نزل عليّ هذا العام مرتين، وما أراني إلا قد اقترب أجلي». وقد كان الأمر كذلك فقد انتقل في ذلك العام إلى جوار ربه صلوات الله وسلامه عليه وانقطع بوفاته نزول الوحي.

أما كيف تلقّى جبريل القرآن عن الله عز وجل، فقد تقدّم معنا أنه كان سماعاً حيث سمع من الله عز وجل هذه الآيات فنزل بها على رسول الله.. قال البيهقي في معنى قوله: ﴿**إنّا أنزَلْناهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ**﴾[3] يريد - والله أعلم - (إنّا أسمعنا الملَكَ وأفهمناه إيّاه وأنزلناه بما سمع..) انتهى .. ومعنى هذا أن جبريل أخذ القرآن عن الله تعالى سماعاً ويؤيده ما روي في الحديث الشريف: «إذا تكلّم الله بالوحي

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ١٦ - ١٩.

(٣) سورة القدر، الآية: ١.

أخذت السماء رجفةٌ شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السماء صعقوا، وخرّوا سُجّداً، فيكون أولهم يرفع رأسه (جبريل) فيكلّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلما مرّ بسماء سأله أهلها ماذا قال ربنا؟ قال: الحق، فينتهي به حيث أمر». رواه الطبراني.

قال (الزرقاني) في كتابه مناهل العرفان: (وقد أسفَّ بعض الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبي ﷺ بمعاني القرآن، والرسول يعبّر عنها بلغة العرب.. وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي إليه المعنى فقط.. وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسنّة والإجماع، ولا يساوي قيمة المِداد الذي يُكْتَبُ به، وعقيدتي أنه مدسوس على المسلمين في كتبهم، وإلاّ فكيف يكون القرآن حينئذٍ معجزاً واللفظ لمحمد أو لجبريل؟ ثم كيف تصحّ نسبته إلى الله واللفظ ليس لله؟ مع أن الله يقول ﴿حتى يَسمعَ كلامَ الله﴾ [1] إلى غير ذلك مما يطول بنا تفصيله [2].

هل السنة النبويةُ بوحيٍ من الله؟

تقدّم معنا أن القرآن الكريم (كلام الله) ومعنى ذلك أن (اللفظ والمعنى) هو من عند الله، ولا دخل لجبريل أو لمحمد فيه سوى التبليغ عن الله عز وجل، أما السنة النبوية فإنها بوحي كذلك من الله ولكنّ اللفظ للرسول والمعنى من عند الله، لأن الله تعالى يقول ﴿وما ينطقُ عنِ الهوَى *إن هُوَ إلاّ وحيٌ يوحى﴾ [3]. وقد نقل السيوطي عن (الجويني) أنه قال: (كلام الله المنزّل قسمان: قسم قال الله لجبريل: قل للنبي الذي أنتَ مُرْسَلٌ إليه إنّ الله يقول: إفعَلْ كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهم جبريل ما قاله ربه ثم نزل على ذلك النبي وقال له ما قاله ربه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملكُ لمن يثق به: قل لفلانٍ يقول لك الملك: اجتهد في الخدمة،

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.
(٢) أنظر: مناهل العرفان، ص ٤٢.
(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ـ ٤.

واجمع جندك للقتال.. فإن قال الرسول: يقول لك الملكُ: لا تتهاون في خدمتي، ولا تترك الجند يتفرق، وحُثّهم على القتال.. الخ لا ينسب إلى كذب ولا تقصير.. وقسم آخر قال الله لجبريل: اقرأ على النبي هذا الكتاب، فنزل به جبريل من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتاباً ويسلمه إلى أمين ويقول اقرأه على فلان.. قال السيوطي: القرآن هو القسم الثاني والقسم الأول هو السنة، ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى بخلاف القرآن).